مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية ISSN: 2335-1039
المجلد: 11 العدد: 02 السنة 2022 ص 829 - 855

تاريخ الإرسال: 2022/04/26 تاريخ القبول:2022/05/08

اللغة والهوية في الجزائر...تعدد وتعارض أم وحدة وتكامل؟

Language and Identity in Algeria: Multiplicity and Conflict or Unity and Integration

د.سيف الدين هيبة*[1]

[1]جامعة غرداية، (الجزائر)، seife507@gmail.com

الملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية أن تسلط الضوء على إشكالية أساسية وهي مسألة من المسائل الحساسة التي تتضمن أهم قضايا الساعة والساحة الوطنية والقومية، ألا وهي مسألة الهوية وعلاقتها بالثقافة الأصلية والسلالة العرقية والانتماء إلى الأمة الإسلامية الناطقة بالعربية...، أي أنها تحاول مناقشة علاقة ودور اللغة العربية والدين الاسلامي بوحدة الهوية الوطنية وتكاملها أو بتعارضها وتعددها، وعلاقة العموميات الأساسية والثوابت الجوهرية بالبدائل الثقافية والخصوصيات الفرعية المحلية والجهوية.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الهوية؛ الجزائر.

Abstract

This paper attempts to shed light on one of the most current national issues, a basic problem, which is the issue of identity and its relationship to the original culture, ethnic dynasty, and belonging to the Arabic-speaking Islamic nation. It tries to discuss the relationship and role of the Arabic language and the Islamic religion in the unity of national identity and its integration or its conflict and plurality, and the relationship of basic generalities and fundamental constants to cultural alternatives and local and regional sub-specificities, where we want to address this sensitive issue that of the Arabic language in its relationship to the Islamic religion, identity, educational policy, cultural invasion, globalization and the linguistic map of Algeria, as well as the cultural dialogue taking place in the arena, and its impact on the social and political unity of society in general.

*المؤلف المرسل

It is one of the topics on which opinions differed and viewpoints varied.

Keywords: Language, identity, Algeria.

تمهيد:

إذا كان لكل عصر سمته أو طابع يميزه فإن أبرز ما يميز عصرنا الحاضر بدون منازع، هو أنه عصر القوميات والصراعات العرقية الناتجة عن ظاهرة النزوع إلى التميز والتفكك القومي عن الكيانات الكبرى، باسم القومية نتيجة اختلاف المفاهيم – أحيانا– حول مكونات الأمة والشعب والدولة والإقليم والهوية واللغة والسيادة والوطنية والشخصية والقومية... وهي مفاهيم كلها نجد أنفسنا مضطرين لتناولها خصوصا إذا كان الحديث في الفكر والثقافة والعلم.

ولما كانت اللغة العربية لغة هذه الأمة وعنوان هويتها ورمز تواصلها ووعاء تفكيرها وثقافتها، فقد نالت حظها المنكود من الهوان والاحتقار، وأصبحت في نظر خصومها المتربصين وبعض أبنائها المتخاذلين الذين فقدوا الثقة في أنفسهم، لا تصلح لشيء وعبئا من الماضي ثقيلا ينبغي التخلص منه، فهي متخلفة لا تساير العصر والتعليم لا يستقيم أمره ولا ينصلح حالة إلا بإبعادها عنه، والتقدم لا يتوصل إليه إلا بإزاحة هذه العرقلة من طريقه، والتعريب هو البلاء وأس الداء ولائحة التهم التي تقود هذه اللغة إلى المقصلة طويلة عريضة كما نعلم، خلاصتها أننا الأمة الوحيدة التي تهين لغتها، كما قال أحد الشعراء المفكرين ذات يوم، والتشكيك في اللغة العربية واحتقارها كانا مدخلا واسعا إلى التشكيك في الهوية، ونقطة الارتكاز في كل ما دار حولها من مناقشات وما طرح من تساؤلات واختلافات، ذهب بعضها في الشطط بعيدا، وغالى في هذا الاتجاه أو ذاك كثيرا.

أولا: المجتمع الجزائري جزء من المجتمع العربي الإسلامي:

- إن المجتمع بمقوماته الثقافية والحضارية والتاريخية جزء من المجتمع العربي الكبير الذي نطلق عليه اسم (الأمة العربية).

ومن هذا المنطلق فإن أي مجتمع مماثل للمجتمع الجزائري في أي قطر عربي فهو وإن كانت له مميزاته النوعية الضيقة الخاصة به بحكم بعض الظروف والعوامل

التاريخية والجغرافية والسياسية، إلا أنه لا يعدو أن يكون حلقة متصلة (بقدر ماهي منفصلة) في سلسلة متكاملة الحلقات مترابطة العرى تاريخيا ودينيا ولغويا وبالتالي ثقافيا وحضاريا، فالجزائر جزء من الأمة الإسلامية العربية المحمدية.

لذلك "يجب أن نعتقد أن الذي يؤلف بين جماعة من الناس ويصيّرهم أمّه واحدة تتجاوب مشاعرهم وترتبط مصالحهم...إنما هي مقومات معنوية غير العنصر".[1]

وضمن هذا السياق أو الاتجاه الذي يمثل وعيا متقدما جدا في مفهوم الأمة، كما يجب أن تكون نجد إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس الذي يصرح محذرا ومؤكدا بأن القومية ليست لها أية علاقة بالعرق أو السلالة وإنما أساس القومية هو وحده اللغة والثقافة المشتركة والعقيدة الدينية، أي أن القومية هي اتحاد الفؤاد واتحاد اللسان، على حد تعبيره بالحرف الواحد في مقال بعنوان (كيف صارت الجزائر عربية) حيث قال: "ما من نكير أن الجزائر كانت أمازيغية، من قديم عهدها، وما من أمة من الأمم استطاعت أن تقلبها عن كيانها، ولا أن تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل هي التي كانت تبتلع الفاتحين فينقلبوا إليها، ويصبحوا كسائر أبنائها، فلما جاء العرب، وفتحوا الجزائر فتحا إسلاميا لنشر الهداية –لا لبسط السيادة– وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس، لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين، دخل الامازيغ من أبناء الوطن في الإسلام وتعلموا لغة الإسلام العربية، طائعين فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجال العلم وشاطروهم سياسة الملك، وقيادة الجيوش وقاسموهم كل مرافق الحياة (إلى أن يقول: "فأقام الجميع (العرب والبربر) صرح الحضارة الإسلامية يعبرون عنها وينشرون لواءها بلغه واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان؟"[2]

وهنا نلمس بكل وضوح مفهوم الإمام لأسس تكوين الأمة والهوية الوطنية والقومية المبني أساسا على وحدة الدين ووحدة اللغة وآدابها وثقافتها المشتركة في عمومياتها (الثابتة) مع إبعاد العامل العرقي، إلى جانب عدم اعتبار الاختلاف العرقي واللوني –

إن وجد افتراضا – حائلا دون تحقيق العروبة الكاملة للشعب الجزائري المسلم (فهو عكس ما كان يهدف إليه المخطط الاستعماري الفرنسي وما يزال، كما يقول الدكتور أحمد بن نعمان. (3)

فالعربي التام–إذن– عند ابن باديس والأفغاني من قبله، هو من كان قلبه مفعما بالإسلام، ولسانه ناطقا بالعربية...." وهنا نجده يختلف عن أصحاب الاتجاه (الأممي) الذي يعتمد على الدين وحده، ويسقط العوامل الأخرى كاللغة والثقافة والتاريخ، كما يختلف في الوقت ذاته عن الاتجاه البعثي (العلماني)، الذي ينفي عامل الدين ويسقطه من حسابه فهو اتجاه منتشر في المشرق العربي، لأسباب طائفية معروفة ومفهومه، ويضرب – في الوقت نفسه – الاتجاه الانعزالي "السلالي" الذي قد يظهر في بعض الأقطار العربية المغاربية ليقول: "نحن مسلمون ولكننا لسنا عربا".(4)

فكان لهذا الشيخ والإمام الامازيغي الهمام الذي عربه الإسلام فسطع نجمه وأنار فكره الظلام ليهتدي به صفوة الأقوام من غير فصيلة الأنعام –وعي وطني وقومي رفيع– به استطاع إحباط المخططات الاستعمارية التي ظلت تستهدف الوحدة الوطنية لشعوب المغرب العربي عموما والجزائر خصوصا بترويج ادعائها المغلوط الذي مفاده أن العرب الفاتحين ليسوا إلا غزاة للبلاد المغربية... فكتب تفنيدا لهذا الادعاء الاستعماري قائلا: " أما أبناء يعرب وأبناء مازيغ فقد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت بينهم خلال أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام"(5)

وهكذا فالشيخ عبد الحميد بن باديس يرد بقوة على دعاوي الاستعمار الفرنسي للتشكيك في عروبة الشعب الجزائري (المستعربة) حيث يقول:" إن اختلاط الدماء في فرنسا والدول الأوروبية قائم، لم يحول ذلك أن تكون فرنسا أمة واحدة لاتحادها فيما تتكون به الأمم، بينما نجد على جبال فرنسا في قراها من لا يحسن اللغة الفرنسية ولكن ذلك القليل–نظرا للأكثرية– لم يمنع من أن تكون فرنسا أمة واحدة.... (ثم يضيف) وهذه الحقيقة الموجودة في فرنسا يتعامى الغلاة المتعصبون عنها، ويحاولون بوجود اللغة

البربرية في بعض الجهات وجودا محليا، وجهل عدد قليل جدا بالعربية على رؤوس الجبال، أن يشككوا في انتماء الجزائر إلى الأمة العربية التي كونتها القرون وشيدتها الأجيال" (6)

وبهذا يتبين لنا جليا أن هذا المفكر العربي المسلم الأصل كان سباقا بين علماء عصره مقتديا بسلفه الأفغاني إلى هذا الربط الموفق بين الإسلام والعربية في تكوين الأمة المحمدية، مع إسقاط العامل العرقي من حسابه تماشيا مع منطق العصر، وتفاديا للوقوع في الفخ الاستعماري وتفويتا عليه فرصة التسلل لتقويض الوحدة الوطنية والقومية، فيؤكد ذلك في مناسبة أخرى بقوله:" ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها، ولكنه يتوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الألآم والآمال (إلى أن يقول): "تكاد لا تخلص أمة لعرق واحد، وتكاد لا توجد أمة لا تتكلم بلسان واحد ، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد"(7).

وهذا التأكيد على عنصر اللغة في العروبة لدى ابن باديس نجد له الأصل الإسلامي المتمثل في قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما خطب في العرب المسلمين مدافعا عن ثلاثة من الأعلام المسلمين (الصحابة) من غير ذوي الأصل العربي وهم بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي فقال :«**أيها الناس الرب واحد والأب واحد و الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا من أم وإنّما هي باللسان فمن تكلم العربية فهو عربي.**"(8)

إن هذه المقومات التي سبق ذكرها لدى جمال الدين الأفغاني وابن باديس والفضيل الورثيلاني وغيرهم من أبناء الأمة في المشرق والمغرب العربيين والمتمثلة على الخصوص في التاريخ واللغة والثقافة والدين هي أهم الأسس التي تنهض عليها أية وحدة وطنية، كما قال الدكتور أحمد بن نعمان "هي كما هو واضح من تداخل بعضها في بعض، تتطلب أكبر قدر من التكامل والتجانس فيما بينها، وإذا حدث ضعف أو خلل في واحدة، فقد يؤدي ذلك إلى تصدع البناء الوحدوي بكامل من الأساس". (9)

إلى أن يقول: " إن قطعة الأرض الجغرافية التي يطلق عليها اسم البلد لا تساوي شيئا في ذاتها بل ولا تستطيع أن تحافظ على اسمها ومحتواها الحضاري، إذ فقدت العامل البشري لبعده الثقافي الذي يمثل حضارة وثقافة وشخصية الرقعة الجغرافية للوطن ترابا وشعبا"[10].

وعلى سبيل المثال نذكر نموذجين من التاريخ الماضي والحاضر لإثبات دور الديمغرافيا بمحتواها الثقافي في المحافظة على الوطن والأمة بجوهر وجودها الحقيقي، المتمثل في الهوية والوحدة الثقافية والبشرية أو السكانية قبل الوحدة الترابية أو الجغرافية.... ففي المثال الأول نجد أمريكا والتي تم فيها تغيير سكان بسكان، بإبادة هؤلاء وإقامة أولئك (الهنود الحمر تمّت إبادتهم)، أما الأندلس فبمجرد تغيير المحتوى الديمغرافي (في جوهره الثقافي) تغير البلد من مكانه في عالم وحضارة إلى مكان آخر في عالم ذي حضارة أخرى مناقضة تماما للحضارة التي كانت سائدة فيه طوال سبعة قرون من الزمن، وعما سجله التاريخ لما وقع في الأندلس للمسلمين نورد هذا النص لأحد الباحثين وهو الدكتور محمد بن عبد الكريم، حيث يقول: "إن جميع من تبقى من المسلمين تحت ذمة الإسبان بأرض الأندلس قد ارتد عن دينه ودخل – طوعا أو كرها – في دين المسيح هناك.[11]

وهذا المثال الأخير يبين لنا بكل وضوح أن أساس الوحدة الوطنية للأمم والشعوب هو الثقافة وليس وحدة الأصول العرقية، بأي حال من الأحوال، بدليل أن الآلاف من الأندلسيين الذين أبيدوا هم في غالبيتهم الإسبان من ناحية الأصل السلالي، كما أن العديد من سكان إسبانيا المسيحية اللاتينية اليوم هم أصلا من شمال إفريقيا العربية الإسلامية سابقا سوآء كانوا عربا أو أمازيغ بحسب التقسيم الاستحلالي الجديد".[12]

ثانيا: الإسلام ولغة القرآن: أو الدور الحضاري للّغة العربية :

يقول في هذا الصدد: عبد العلي الودغيري: "لا عجب اذا علمنا أن كل ما نشأ في ظل الإسلام –ولاسيما في القرون الأولى– من علوم على اختلافها ومعارف على اتساعها وتنوعها، إنما نشأ من هاجس الحرص على هذا الكتاب (القرآن) وعدم التفريط في شيء قليل منه أو كثير. فبفضل الحرص على فهم القرآن وتدبر معانيه

وأحكامه نشأت علوم القرآن والحديث والتاريخ المغازي، وعلم الفقه والأصول والكلام واللغة والشعر والبلاغة والأدب وغيرها .

ومن الحرص على ألفاظه وأصواته وأدائه الأداء المطلوب، نشأت علوم التجويد والقراءات والأصوات والوقف والابتداء...وخوفا على قارئيه من الوقوع في اللبس والتحريف تطورت كتابة اللغة العربية بأن وضعت لها علامات الاعجام وعلامات الشكل حتى أصبحت على ماهي عليه الآن، وخوفا على القرآن من نشأ علوم النحو والتركيب"[13] إلى أن يقول:" إن تأثير الإسلام على العربية عميق وكبير وله مظاهر متعددة أهمها: أنه عمل على حفظ هذه اللغة وضمان استمرارها ووحدتها وجعل منها لغة حية بحياة الإسلام على الدوام، إذ كان من المتوقع –حسب سنة التطور اللغوي– أن تمضي العربية في طريق الانقسام على نفسها إلى لغات ولهجات تتباعد الشقة بينها وتضعف الوشائج والصلات اللاحمة بين فصائلها إلى أن يؤول أمرها إلى ما آلت إليه اللغة اللاتينية وغيرها ، التي تفرعت إلى لغات عدّة".... فلقد استطاع الإسلام " أن يحافظ على وحدة اللغة التي تجمع بين سائر اللهجات مهما تفرعت وتشعبت فهي اللغة الفصحى، وجعل منها اللغة التي كتب لها الدوام والخلود بدوام الإسلام وخلوده".[14]

إذن فهي ظاهرة فريدة تختص بها العربية بين سائر اللغات الأخرى وإن كانت تلك الحقيقة –حقيقة كون العربية تمتاز بخاصية الخلود – قد يصعب على الكثيرين من اللّغويين المعاصرين أن يسلموا بها حتى من بين المسلمين أنفسهم، ولكن هذا هو الواقع الذي فرضه نزول القرآن وكتابة السنة بهذه اللغة سواء سلموا أو لم يسلموا. فمن يؤمن بالقرآن حقيقة خالدة لأن خلودها مرتبط بخلوده وبقاءها ببقائه.

إنه عمل على نشر هذه اللغة في الآفاق وتوسيع أطلسها الجغرافي بشكل سريع ومثير للدهشة، فحيثما حل الإسلام واستقر القرآن حلت العربية واستقرت، ومن هنا كتب للعربية أن تخرج من خريطتها الصغيرة في مساحة شبه الجزيرة العربية، لتتسع وتمتد من أقصى الخليج إلى أقصى المحيط أفقيا ومن أفريقيا و آسيا الى أوروبا عموديا.

فالإسلام هو الذي حول هذه اللغة من لغة محلية إقليمية الى لغة عالمية تتجاوز صحراء الجزيرة الى سائر القارات والمحيطات، والإسلام هو الذي حولها من لغة قوم

معينين وقبائل معيّنة إلى لغة أمة بشعوبها وأممها وأجناسها المختلفة ومن هنا كان تأثير العربية في لغات الشعوب الإسلامية تأثيرا واضحا وكبيرا ومن هنا أيضا نفهم لماذا وقف المستعمرون من فرنسيين وغيرهم في وجه تعليم القرآن وفتح الكتاتيب في المناطق التي سيطروا عليها، لأنهم وجدوا أن تعليم القرآن يؤدي إلى تعليم العربية ونشرها وبالتالي إلى تعريب المناطق التي يريدون فرض لغاتهم الأجنبية عليها.

لقد خدم الإسلام لغة القرآن خدمات جلّى: طوّرها ونمّاها وهيّأها لاستيعاب مختلف العلوم العقلية حتى أصبحت لغة الدين والفكر والثقافة والتقنية والإدارة والاقتصاد والسياسة والحضارة الإنسانية العالمية طيلة قرون عديدة إلى عصر الاستعمارات الغربية الحديثة. وفي هذا الصدد يضيف عبد العلي الودغيري قائلا: "إلى عهد قريب جدا كانت العربية هي اللّغة التي قامت بدور حضاري عالمي كبير في نقل ثقافات الأمم وتجاربهم، والجسر القوي الذي عبرت فوقه قافلة العلوم والثقافات الإنسانية إلى أروبا وآسيا وإفريقيا وغيرها من القارات، وعلى هذا الأساس بنى الغرب صرح حضارته الحديثة ومعارفه الجديدة التي غزا بها العالم وأحتلّه وهيمن عليه[15]

وبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا لقد أثرت اللغة العربية في لغات الشعوب الإسلامية ويتجلى ذلك في تبنيها الخرف القرآني في كتابتها منذ أن دخلت هذه الشعوب في دين الإسلام، وهو أمر ظل قائما إلى عهد قريب جدا. إذ لم تتحول أكثرية هذه اللغات إلى الحروف اللاتينية أو غيرها إلا مع دخول الاستعمار الحديث والخضوع لتأثيراته القوية، وذلك بعد أن خاضت مع لغات المستعمر ضروبا من الصراع وعانت أشكالا من المحن وظلت تصارع المتغلب إلى أن استنفدت كل طاقاتها.

ثم إن هذا التأثير قد تجاوز لغات الشعوب الإسلامية ليصل أحيانا على لغات أوروبية حية مثل الايطالية والاسبانية والفرنسية التي احتكت لفترة طويلة بالحضارة الاسلامية العربية فتسربت إليها مئات الألفاظ العربية ذات الدلالات الإسلامية.[16]

وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة المسلمين كافة وليست لغة العرب خاصة، فالمسلمون قبل الاستعمار الحديث كانوا يؤمنون بأنهم كتلة واحدة ولم يعرفوا فكرة الحدود الضيقة والخرائط الجغرافية المصطنعة والقوميات القائمة على العرقية البغيضة، ألم يأت

الإسلام ليمحوا آثار الفكر العرقي من أذهان الناس ويوحد بينهم عرب وعجما وعلى اختلاف ألوانهم وأصبحوا بفضل الله إخوانا؟ ألم يأت الاسلام بمفهوم الأمة ليحتوي مفهوم الشعب والقبيلة والعرق والجنسية؟ لكن الاستعمار –ليسهل به القضاء على وحدة المسلمين ويمزق آصرتهم ويشرذم تلاحمهم – أتى بفكرة التعصب الأعمى للقومية الوطنية والحدود الجغرافية واللغة الإقليمية، فتناهضت أصوات من هنا وهناك وحناجر ولافتات.

بل أحزاب وتكتلات، تنادي بالفصل بين أجزاء الجسد الواحد تارة بدعوى التمسك بالحدود الجغرافية التي فضلها الاستعمار على مقاس إرادته وخطته ومصالحه أو فرضتها مصالح السياسة خاصة بالحاكمين ، وتارة بدعوى التمسك باللغة الإقليمية والأصل العرقي واللون والدم والثقافة وما أشبه ذلك ونسوا أو تناسوا أن إسلافهم من أجيال المسلمين الذين فهموا الإسلام على حقيقته قد تخلوا نهائيا عن فكرة التعصب للعرق والجنس واللغة المحلية فاحتواهم دين واحد ولحمت آصرتهم رابطة اللغة الواحدة والثقافة المشتركة والتقاليد والعادات التي قليلا تختلف إلا في جزئيات محلية تدل على التنوع لا على الفرقة (الثقافة الفرعية).

وأما عن انتشار اللغة في الجزائر وبعد تحليل أحمد بن نعمان للأسباب التي ساعدت على التعجيل بذلك التعريب وانجاحه بالسهولة التي تم بها على خلاف العديد من البلدان المفتوحة الأخرى (الفتح الإسلامي) ، فيقول بأن الوسيلة التي انتشرت بها فكانت إلى جانب رغبة البربر الشديدة في تعلم اللغة العربية ، حرص العرب على تعليم البربر واقامة معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد تدعى إلى يومنا هذا(المسيد) فهي كلمة منحوتة من كلمة مسجد فهو بمثابة الكتاب في بلاد المشرق العربي، يتعلم التلاميذ في هذا المسيد القرآن والحديث ومبادئ اللغة العربية والفقه، وقد وضعت هذه المعاهد إما من طرف الدولة أو من طرف أناس صالحين وهبوها لتعلم أبناء المسلمين دينهم ولغتهم، وقد بدأ هذا النوع من المساجد ينتشر في النصف الثاني من القرن أول الهجري ، وقد ساعد الأهالي على إنشائه إلى جانب الدولة ، فأنشئه البربر في الجبال وعلموا فيه العربية بالبربرية، وكانت غاية البربر من وراء تعلم اللغة العربية أن يتعربوا ويفوقوا

العرب أنفسهم بالفقه واللغة والشعر ، والخطابة ، والعلوم الإسلامية عموما فكأن حبّهم للّغة العربية كوّن لهم مركب أمام الفاتحين دفعهم إلى مضاهاتهم في تعلمها.

وبهذه الكيفية اتسعت رقعة العربية في الإدارة والمحيط الاجتماعي، وتم تعريب البربر ونتج عن عملية الاعتناق الجماعي للإسلام، وتبني اللغة العربية كلغة دين وثقافة نوع من الامتزاج العضوي (العرقي والثقافي) بين العرب والبربر فذاب العرب عرقيا في العنصر البربري، وانصهر البربر ثقافيا في العرب الحكم العقيدة واللغة وأصبح الجميع يكونون مجتمعا ذا دين واحد ودولة واحدة ونظام سياسي واحد ، ولغة واحدة للتعبير عن هذه الثقافة على امتداد أربعة عشر قرنا من تاريخ البلاد وبذلك يكون المجتمع الجزائري جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية بكل أقطارها المتعددة في الشرق والغرب العربيين(17)

ثالثا: لا مراهنة على زوال اللغة العربية

يتحدث بعض المتفائلين (في اقتناع واعتقاد) بأن العربية الآن تختصر وأن مآلها هو الزوال، أو زوايا بعض المساجد، مثل مصير اللاتينية المنزوية في بعض الكنائس في الوقت الحاضر .

والحقيقة أن هذا التفاؤل (الواضح النوايا) قديم لدى الفاعلين، وجديد (عند نواب الفاعل) في بلادنا، ويدخل في إطار الصراع الحضاري والحرب النفسية التدميرية (للذات) والتعقيدية لبعض النفوس الضعيفة في العقول الخفيفة ، حيث يذهب أعداء وحدة الأمة على اختلاف نزعاتهم إلى تقويض ركن حضارتها العتيد المتمثل في اللغة العربية ، وذلك بالعمل ، والقول (المغلق بطابع الموضوعية) بأن اللّغات كالكائنات الحية: تولد وتشب وتكتهل و تشيخ وتموت لثرتها لغات أخرى تولد بحكم الظروف المستجدة وأبرز مثال لهم في التاريخ الحديث وهو استغلال اللهجات الأوروبية عن اللغة اللاتينية التي تقلصت، لتتقوقع في الكنائس كلغة الكنائس الدينية ، بعد أن كانت لغة دين وحضارة وعلم وفلسفة و أدب في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ورومانيا والبرتغال..... وحجتهم في ذلك أن اللّغات تسير من العام إلى الخاص في اتجاه (سهمي) لا يعرف الرجوع إلى الوراء، وكأنه القدر المحتوم وسنّة الخالق التي لن يجد

لها المخلوق تبديلا ولا تحويلا..... ومن ثمة راحوا يطالبون بضرورة التعجيل بهذا الاستغلال، حتى لا يضيّع الوقت في علاج لغة تحتضر!! .

وهناك كثير من الأمثلة التاريخية الحيّة والشواهد الدقيقة التي تبين ان اللّغات لا تسير نحو الانقسام في حتمية مطلقة ، وإنما تتجه أيضا نحو التوحد إذا توفرت لها أسباب وظروف خاصة، ونعتقد أن هذه الظروف و الإمكانيات المساعدة على التوحد هي في عصرنا الحاضر أوفر منه في العصور الماضية ، مما يبعث على الارتياح بأن توجد اللهجات العربية في اللغة المشتركة الواحدة أقرب إلى التحقق من استغلالها عن الفصحى لتصبح لغات عامة قائمة بذاتها، كما يذهب المعارضون والمغرضون والمخططون لهذا الهدف الاستعماري الجديد في البلاد العربية مشرقا ومغربا ! .

"وقد سعى الاستعمار الفرنسي في الجزائر (وبلدان المغرب العربي عموما) وما يزال يسعى إلى الآن بواسطة بعض المتأثرين بدعوته (من نواب الفاعل) إلى وضع الفصحى في المتحف وتفصيح اللهجات الدارجة ، التي يعتبرها اللغة الحية هي الأخرى، والهدف الأساسي من كل تلك المحاولات الدؤوبة هو تقويض الركن المركزي للأمة– أولا – على المدى القريب ، وإبعاد الناس عن اللغة القرآن ، وبالتالي تقويض أو –على الأقل– إضعاف الوعي الديني والثقافة الإسلامية على المدى البعيد ، لما للإسلام من علاقة خاصة بالفصحى، وذلك لأن المسيطر الأجنبي كان يعلم أن اللهجات العامية العربية مختلفة بعضها عن بعض، وتزداد اختلافا مع انتشار الأمية والتخلف والاستعمار ، الذي حال دون ازدهار الفصحى لتغذي اللهجات العامية بالمفردات الفصيحة ....فتضطر تلك اللهجات (في حالة الاستقلال عن الفصحى) أن تأخذ مفرداتها من لغات المحتل ذاته كالفرنسية التي أخذت منها اللهجة العامية الجزائرية ما أخذته الإسبانية من العربية ، أو اللهجة المصرية من الإنجليزية والتركية ....أو اللهجة الليبية من الإيطالية لتصبح تلك اللهجات بعد جيل أو جيلين أشبه باللغة المالطية بالنسبة إلى اللغة العربية الحالية !!! .

ولعل خير من نبّه إلى هذا الخطر، وشرح أسبابه وقاوم دعاته الأصليين (وهم المستشرقون الاستعماريون) والفرعيين (وهم المستغربون من بعض أشباه المثقفين العرب، هما الأستاذان محمود تيمور وطه حسين." [18]

ولو فرضنا أن اللّهجات العربية أو حتى غير العربية (الأمازيغية) قد استقلت عن الفصحى، وترسمت في أقطار الحالية فهل يكف منظور الاستعمار (الثقافي) الجديد، من الدعوة إلى ترك تلك اللّغات الضيّقة الوليدة التي لا تساير التطور الحضاري الصاروخي.... لتبني لغتهم (الحيّة) التي يوحون إلينا بأنها هي وحدها التي تكفل لنا التقدم والتحضر ...وبذلك يتم هضمنا حضاريا وثقافيا، بعد أن فشلوا في قتلنا سياسيا ، وابتلاعنا اقتصاديا فلماذا لا ننظر إلى تاريخ تلك الأمم. (الاستعمارية بذاتها) التي تحافظ على عناصر قوميتها وكيف تعمل على تفادي التقسيم اللغوي وتدعوا إلى التوحيد لخلق اللغة المشتركة القومية من أشتات من اللهجات المحلية.... في أقطارها؟ وعن المفارقة العجيبة الواقعة بين عبقرية اللّغة العربية وعظمتها من جهة ، والانفصام الشنيع الواقع بينها وبين بعض أبناء هذه الأمة من حكام ومحكومين الذين يحملون اسمها وأسماءها ويحسبون عليها بين الأمم في هذا العالم..... يقول الدكتور محمد غوزي (وهو عضو اتحاد الأطباء العرب) في مقال له بعنوان "تعريب الطب واقع وطموحات " ما نصه "....."لا يرتاب أحد من الباحثين اللّغويين ، قدامى ومحدثين، شرقيين وغربيين في أن العربية من أقدم اللّغات وأقواها أصالة وأوسعها تعريفا ، بل يذهب البعض إلى اعتبار العربية فرق اللغات الإنسانية ، قاطبة فهي أم اللّغات الآرية، لا السامية والحامية فحسب.[19]

إذن " فاللغة العربية عنصر عالمي مستقل وظاهرة اجتماعية وعامل حضاري ، فإذا ما عزونا إليها طواعيتها لاكتشاف والاختراع والتوليد قديما وحديثا ،فليس لنا أن نستلم في ذلك استلاما شعريا لذيذا ترى خلاله العربية لغة العلوم. " فالعربية مرنة مطواعة مطاطية تلبي أدق مطالب العلوم وخاصة منها العلوم الطبية بألوان اشتقاقاتها ، وأنواع صيغها أسماء وأفعالا وصفات. وباستعدادها الأصيل للاقتباس والتعريب لكل لفظ دخيل من ألفاظ الحضارة والفنون والعلوم وكان لها في ذلك كتب واسعة ومجلدات ضخمة..."

فالعربية ماهي باللغة الجامدة الميتة ، بل هي اللغة المرنة المطواع التي كتب إليه لها النماء والخلود، فهل نحن أهل لحمل رسالتها وجعلها لغة علومنا كما هي لغة قرآننا؟.

ويقول الدكتور أحمد بن النعمان في هذا الصدد " إن اتحادنا .... قد حمل فكرة تعريب الطب منذ نشأته 1982 فمؤتمراتنا الطبية التي تقام في وسط أوروبا ترفع شعار العربية لغتها، جمعيتها الطبية هي الأولى من نوعها بمقالاتها العلمية والطبية التخصصية ناطقة بالعربية ، ورفع الاتحاد مذكرات عديدة إلى وزراء الصحة العرب وإلى نقابات الدول العربية وكذلك إلى منظمي المؤتمرات الطبية في الأقطار العربية مذكرا إياهم بأن الطب في العالم كله يدرس بلغة بلده الأصلية ، فاليونان والألبان والبولونيون وحتى أرمينيا وفي دولة طاجكستان كل يدرس بلغته القومية. فلما إذا ندرس العلوم الطبية في بلادنا باللغة الفرنسية، أو الإنجليزية وطالب الاتحاد كافة المنظمات المعنية بوضع حد لهذا الانهزام الحضاري"[20]

لذلك نقول ألا يكفي هذا دليلا قاطعا على أن للغة العربية مكانة حضارية مرموقة بين أهم لغات العالم حاضرا ومستقبلا، رغم الوضع المتردي الذي يوجد عليه المنتمون "جغرافيا" إلى هذه اللغة وأمتها رغم أنفسهم ورغما عنها !! .

وفي علاقة اللغة العربية بالإسلام ، يجدر بنا هنا الاستشهاد، برأي أحد المتكبرين الإسلاميين المستنيرين (الذين يتقنون أكثر من لغة اجنبية) وهو الدكتور رشدي فكار" الذي يقول في هذا الخصوص:

" إن الإسلامية والعربية صفتان للجسد يتكاملان ولا يتواجهان، فالإسلامية هي المضمون والجوهر ، وكل ما هو إسلامي –أحب من أحب وكره من كره– هو بالضرورة والالتزام عربي اللسان والبيان، ومن المفروض على كل مسلم أن يلتزم بلغة القرآن كلسان وتعبير عن البيان".[21]

ونفس الشيء يقوله الدكتور عماد الدين الخليل: " وتشكل اللغة العربية بما أنها لغة القرآن وعصب التراث التعبيري للمسلمين، مرتكزا أساسيا على العقيدة الإسلامية في تحقيق المقاربة والتوحيد الثقافي للجماعات والشعوب الإسلامية ، وهذا يوجب جهودا استثنائية مضاعفة للمؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية بشكل خاص ، لتمكين هذه

الأداة الفاعلة من استعادة دورها العالمي (الانتشاري) واعتمادها كلغة إسلامية لمعظم الشعوب المنضوية تحت لواء هذا الدين في أن تستقطب اهتمام هذه الشعوب لاعتمادها على لغة أساسية، أو على الأقل إيلاءها المكانة التي تليق بها جنبا إلى جنب مع اللغات القومية فضلا عن ضرورة حمايته رسم الحرف العربي في اللغات غير العربية، من الانحسار والاندثار والتغيير كما حدث في التجربة الكمالية في تركيا مثلا، وذلك من أجل الإبقاء على الجسور المفتوحة بين الشعوب الإسلامية. وبين لغة كتابهم وعقيدتهم وتاريخهم الطويل، إن هذا يقتضي أيضا محاولة جادة لمتابعة وتحديد الأسباب التي أدت إلى انحسار العربية من ساحة الثقافات الإسلامية عبر القرون الأخيرة ومحاولة إيجاد الإغراءات والصيغ التي تعيد الالتئام ثانية بين هذه اللغة وبين الشعوب التي تدين بالإسلام.[22]

وإذا كانت الأمة المحمدية تنقصها حلقة اللسان الجامع لتكتمل دائرتها..... فأن الأمة العربية الحالية لا تنقص شعوبها سوى الديمقراطية لتحكم نفسها بنفسها، وتتحرر من قبضة النخب الحاكمة المستبدة التي رباها الاستعمار في مدينته وهي تقف ضد الديمقراطية وضد تحقيق الوحدة الشعبية الفعلية وتحارب الانتماء العربي الإسلامي تماما مثل: النخب الحاكمة في البلاد الإسلامية الأخرى التي تحارب الانتماء الإسلامي فضلا عن العربي.

ونظرا لأن كلا النخبتين تعلمت – غالبا–في نفس المدرسة الاستعمارية السائدة ذات الأيديولوجية الفرنكوفونية الواحدة، فإن المسلمين منهم يحاربون دون انضمام بلدانهم إلى الجامعة العربية " والعرب" منهم يقاومون التعريب الموجود في بلدانهم ويخترقون العراقيل والصعوبات والصعاب والايديولوجيات العرقية والجهوية واللغوية لمقاومة البقاء –أصلا– في جامعة دول العربية أو إفراغ هذا البقاء من محتواه الفعال كما هو حاصل الآن (وبالخصوص في هذه الأيام) لإعطاء صورة سيئة للخارج عن المسلمين عموما والعرب منهم على وجه الخصوص، في الوقت الذي يمرح فيه يهود الفلاشات في رحاب القدس الشريف والحرم الإبراهيمي ويخططون لإنشاء جامعة الدول الشرق أوسطية. "والدليل على إمكان تحقيق الوحدة الكبرى إذا توفرت الإرادة السياسية وحدها

لدى الحكام –فضلا عن الشعوب– هو انضمام جمهورية الموريتانيا الاسلامية سنة 1974 إلى الدائرة "النموذج" حيث أصبحت بجرة قلم عضوا في جامعة الدول العربية (وهي عضو في منظمة المؤتمر الاسلامي) دون أن يطرأ أي تغيير على دماء شعبها الإفريقي المسلم منذ مئات السنين".[23]

لذلك فنحن أمة شعور وشعوب بالفعل، ولكننا لسنا أمة أنظمة وحكومات بعد فحدود الدول إذا كانت جغرافية أو سياسية فإن هويات الأمم هي دوما ثقافية....وكما قال الدكتور أحمد بن النعمان:" لن نصبح أمة في دولة بالفعل إلا عندما تتغلب ديمقراطية الشعوب على الدكتاتورية الأنظمة المتسلطة على رقاب العباد، ويتمكن أبناء الأمة النافذين والمخلصين والنابهين من التمييز الحقيقي بين الوطنية الواصلة والبطنية الفاصلة، بحدودها القاتلة التي نجح أعداء في زرع بذورها في أمخاخ بعض صنعائهم فينا...."[24]

رابعا : ترسيم الأمازيغية ...ومستقبل الجزائر

إن داخل الثقافة الواحدة في مجتمع توجد – على جانب العموميات و البدائل – خصوصيات متعلقة بالفئات الاجتماعية (وليس الجهوية) بحسب الجنس أو المهنة او المنطقة الجغرافية، ولكن لهذه الخصوصيات حدودا لا يمكن تجاوزها حتى لا يفقد المجتمع توازنه واستقراره وتماسكه، كما أن وجود الخصوصيات على جانب العموميات و البدائل ....لا يضير وحدة المجتمع وهويته الوطنية في شيء ولكن الذي يضير المجتمع ويهدد كيانه ووحدته من الأساس هو منافسة العموميات الثقافية من قبل بعض الخصوصيات المحلية أو محاولة إحلال هذه محل تلك ، كإحلال لغة محلية أو جهوية محل لغة وطنية عامة ذات تراث مكتوب و عريق ! فهنا يكمن الخطر الداهم حيث تتجاوز الخصوصيات الثقافية المحلية حدودها لتنقلب إلى ضدها فتصبح عاملا لهدم و تحطيم وحدة المجتمع ، وطمس معالم هويته ، بدلا من أن تظل عاملا معبرا عن التنوع الجزئي داخل الوحدة الكلية الشاملة بعمومياتها أو ثوابتها الثقافية لكل أفراد المجتمع الذي يقر أفراده رسميا و ظاهريا أنهم يمثلون أمة واحدة أو شعبا واحدا على الأقل !

وهكذا فإن ادعاء أية جماعة بشرية بأنها ذات عرق رفيع متميز وأنها محافظة على نقاوة هذا العرق ... هو ادعاء عنصري لا ينهض على أي أساس من العلم ، ولا من الواقع ، في أي بلد من بلدان العالم، باستثناء الكيانات العنصرية (في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية فيما مضى) والصهاينة في فلسطين المحتلة في الوقت الحاضر أو صنوها حكومة جنوب افريقيا قبل انتصار الديمقراطية الحقيقية في هذا البلد، والتي كان من نتائجها (غير المزورة و غير المصادرة) نقل الرئيس مانديلا من القبر إلى القصر.

ولقد صاحب انبعاث المجتمعات القومية الحديثة شعور بالعنصر الواحد وإحساس بنوع من التآلف الذي قد يحدث شعورا عنصريا لدى بعض الافراد يقف عقبة في سبيل انبعاث أو نمو المجتمعات القومية الحقيقية، ويلاحظ هذا جليا في محاولة الاستعمار الغربي الأوروبي القديم والاستعمار الأمريكي الصهيوني الجديد لإثارة النعرات الطائفية والعرقية في بعض الأقطار التي تنشد الوحدة والانعتاق من قبضة الاستعمارين القديم والجديد معا، وأوضح مثال على ذلك ما هو واقع من تمزيق عرقي لأوصال وحدة العراق، كما يظهر من مسودة الدستور المقترح والمعروض صهيونيا وأمريكيا وأيضا ما يجرى حاليا من محاولات لذلك في سوريا وليبيا والسودان .... أي تقريبا كل البلدان والدول التي حصل فيها ما يسمى بالربيع العربي، وحتى البلدان المتبقية كالجزائر والمغرب وموريتانيا و ما يحاك حولها هذه الأيام (مسألة ترسيم اللغة الامازيغية وتعميمها في الجزائر بالخصوص).

يقول الدكتور: فؤاد البنا " في كتابه العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة وفي الفصل الثالث المعنون بـــ "خماسية القنابل الموقوتة في بلدان العالم الإسلامي" وعند حديثه في المطلب الثالث عن القنبلة العرقية ، ومن بينها القنبلة الأمازيغية في شمال إفريقيا ما نصه " و بما أن الإسلام لا يعترف بالقوميات إلا كأداة للتعارف و التآلف، و يجعل العروبة دائرة مفتوحة ، فمن تعلم العربية أصبح عربيا ،فقد أصبحت معظم دول شمال أفريقيا عربية ، وبقيت اللغة الأمازيغية والعادات والتقاليد مجرد تراث تاريخي كامن، ولما جاء الاستعمار الفرنسي، وكعادته في تمزيق

الشعوب الإسلامية، فقد زرع هذه القنبلة وتعهدها بالرعاية، عن طريق الدعم المالي والمدد الرجالي، حيث أوجد لها أكاديمية بربرية في بلادها، وأنشأ لها قناة فضائية خاصة، حتى تبرر فرنسا تدخلها السافر في شؤون العرب المسلمين في شمال إفريقيا فقد اعتبرت الأمازيغية امتدادا للثقافة الفرنكوفونية، واعتبرت أبناءها أوروبيين، وأعطتهم امتيازات خاصة، تبدأ بالجنسية الفرنسية (ازدواج الجنسية) وتمر بالدعم المالي والسياسي، ولا تنتهي إلا عند ربط المصير بالمصير.

وفي هذا السياق يمكن الوقوف قليلا لمناقشة أطروحة من الأطروحات المستحدثة غداة الحصول البلاد (الجزائر) على الاستقلال السياسي سنة 1962 وهي أطروحة قديمة لكنها عادت لنا هذه الأيام في ثوب جديد، والأمر هنا يتعلق بمصير الشعب والوحدة أمة وإنصاف تاريخ وتأدية أمانة وشهادة وإعادة اعتبار وتصحيح مسار

ومفاد هذه الأطروحة الهادفة –أساسا– إلى تدمير الوحدة الوطنية للشعب الجزائري (أو إعاقة صيرورتها على الأقل) هو أن هذا الشعب ليس متجانس الأصل العرقي وأنه خليط من البشر من بينهم عنصران غالبان هوما العنصر البربري والعنصر العربي فهي نفس الأطروحة التي احتج بها الجنرال دوغول ضد رجال الثورة المباركة لرفض استقلال الجزائر بعد إرجاعه لترأس الجمهورية الفرنسية الخامسة سنة 1958 في خضم معركة الجهاد المباركة التي كادت أن تعصف بفرنسا.. لإنقاذ بلاده على حساب ثورتنا المجيدة، وفي هذا يقول الرئيس الراحل بن يوسف بن خدة في كتابه عن اتفاقيات إيفيان: "إن ديغول مع رفضه لكل من الاستقلال التام والفرنسة الكاملة (أي الاندماج الكلي) اختار أسلوب المشاركة ، (حكم الجزائريين بالجزائريين مع اتحاد وثيق بفرنسا فيما يخص الاقتصاد والتعليم والعلاقات الخارجية) إنه الحكم الذاتي الداخلي، أي السيادة المحدودة . وكأن هذا التحديد لم يكف دوغول ، فقسم الأمة الجزائرية إلى أعراق ونواح مستقلة في إطار فيدرالي ، حتى يتسنى على حد قوله للمجموعات العرقية المختلفة (الفرنسية العربية، القبائلية، الميزابية....الخ) أن تتعايش في البلاد وتجد ضمانات في ما يخص نظام حياتها وإطارا للتعاون فيما بينهما (25)"

فإذا كانت هذه الأطروحة المفضوحة غير معروفة الأصول والأبعاد الاستراتيجية الفرنسية لدى متبنيها (من هؤلاء الحاملين للجنسية الجزائرية) فهم معذرون فيما فات ، وإذا أصروا على الاستمرار في الإحلال (المباشر) محل الاستعمار (الغابر) في عملية تدمير الذات الوطنية. فاللّوم كما يقول الدكتور أحمد بن النعمان: " لا يعود حينئذ على مستعمري الأمس أكثر مما يعود على خائني اليوم من بقايا العملاء والمتعاونين مع العدو من بعض "الطلقاء" المقيمين الذين صوّتوا –دون جدوى–بـــــ(لا) في الاستفتاء على تقرير المصير الأخير يوم 3جويلية سنة 1962. [26]

والحقيقة أن في الجزائر وبلاد المغرب العربي عموما توجد لهجات عربية يتفاهم بها جميع الناطقين بها فيما بينهم، لأن هذه اللهجات لغة فصيحة (محفوظة بالقرآن وفي القرآن) يرجعون إليها في كل حين عند الحاجة وتوجد لهجات بربرية محلية لا يمكن أبدا أن يتفاهم الناطقون بها –وطنيا– فيما بينهم إلا باستعمال العربية أو الفرنسية، وذلك لسبب بسيط هو أنه لا توجد بربرية فصحى يرجع إليها المتفاهمون (ولن توجد أبدا) ولذلك فإن طرح موضوع الهوية الوطنية في الجزائر اليوم هو محض اختلاق وافتعال لمشكل لا أساس له ، ولقد تجاوزه الأجداد الأحرار المستنيرون منذ 14 قرنا على أن خلفيات طرح الموضوع اليوم في حقيقتها لا تخرج عن إطار مخلفات الذهنية الاستعمارية اللغوية للجزائر فرنسية التي أشار إليها الجنيرال دوغول ووزيره للفرنكوفونية (ألان دوكو)، وهي تدخل في صميم الصراع بين الاستقلال والاحتلال ، أو الصراع بين ثقافة الهلال وهويته، وليس أبدا صراع بين اللغات أو اللهجات العربية أو بربرية على الإطلاق!.فابن خلدون درس ودرّس في بجاية العمران والحضارة بالعربية ، وكان يقضي حوائجه اليومية في السوق بالقبائلية أو العامية العربية، دون أي عائق فرنكفوني والدليل على ذلك أن ظاهرة افتعال المشكل الهوية لا يوجد إلا في الجزائر دون جميع البلاد العربية الأخرى (على الأقل بنفس الحجم) من التي لم يتعهدها الجنيرال بعنايته الخاصة والمستعمرة حاضرا وغائبا.[27]

إن الحديث باللهجات البربرية في الحياة اليومية أمر طبيعي ، من عهد طارق بن زياد وابن تومرت يوسف أبن تكاشفين إلى يومنا هذا قد كان وسيظل كذلك ، ليس داخل

الوطن الجزائري فحسب بل حتى على الصعيد الوطني للوطن العربي ، بما فيه اليمن والحجاز، حيث تتعايش الفصحى مع العاميات العربيات ، بمختلف مصادرها وأصولها، بشرط أن تظل الفصحى (كشأنها دائما)، هي لغة الأفكار والعلوم والثقافة الراقية والحضارة والفلسفة والسياسة وإدارة الأمصار... وتبقى العامية وسيلة التداول بين العوام في الحياة اليومية، وجوانب الثقافة المادية ، والمسائل الفولكلورية .... وحينئذ لا يبقى أي تعارض مفتعل بين الفصحى وأية عامية من العاميات المتداولة في الوطن الصغير أو الكبير...

ولذلك فإن رفع لبس المغالطة "الثلاثية " يكمن في أنّ الهوية الوطنية الجزائرية أو المغاربية أو العربية عمومية في الاتجاه العمودي التاريخي في الزمان هي أمازيغية عربية إسلامية، أو بابلية عربية إسلامية، أو سريانية عربية إسلامية، أو فرعونية عربية إسلامية أو فينيقية عربية إسلامية.... ولكنها في الاتجاه الأفقي في المكان هي عربية إسلامية فقط، وأي طرح غير هذا لن تكون له نتيجة غير تمزيق الوطن واحد أو القطر الواحد إلى أشتات وشراذم لا حصر لها من الهويات والقوميات! ! ذلك أن اللغة الوطنية والرسمية في نفس الزمان والمكان هي عنوان السيادة ومرآة السياسة والهوية الموحدة، وهذه الأخيرة لا تقبل التعدد على الإطلاق، فهي مثل الطفل الذي يستحيل أن يكون مولودا لأمين اثنتين في آن واحد، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد النعمان، ومن منطلق وطني وحدوي خالص: " بأننا نوافق على هذا المطلب وهذا الطرح أو هذا التركيب أو الترتيب، شرط أن يكون (كما هو الشأن في فرنسا ذاتها، وفي جميع البلاد العربية الإسلامية الحالية) ترتيبا عموديا في الزمان، وليس تمزيقا أفقيا في المكان. [28]

ولتوضيح المعنى الحقيقي للاستمرارية التاريخية للشخصية ، والهوية الوطنية الجزائرية (الأمازيغية العربية الإسلامية...) وهذا المثال لا يخص الجزائر وحدها، بل هو نفس الوضع في كافة بلاد المغرب العربي وهو ما يؤكده الأستاذ الفضيل الورثيلاني ، حيث يقول: "كان سكان المغرب العربي قبل دخول الرسالة الإسلامية العربية، بربرا لاختلاف في ذلك، ولا يهمني ما يذهب إيه بعض المؤرخين، من هؤلاء

البربر أنفسهم، بأن هؤلاء البربر من أصل عربي ، وإنما الذي يهمني ، والذي لا شك فيه، أن أولئك البربر قد تعربوا جميعا بعد الهجرات العربية المتوالية على ديارهم ،أما أهم أسباب هذا التعريب فثلاثة: الدين، اللغة، والتزاوج. وكان الدين أسبق الثلاثة إلى التحكم في مصير البربر ، فلقد اعتنقوا الإسلام عن شوق وقناعة ، وأحبوه من أعماق قلوبهم، وأخلصوا لتعالميه أشد الإخلاص، ثم أحبوا معه ومن أجله كل ما صحبه من مقومات ، أحبو أهله العرب حبا لم يكن يخلو من الغلو، حتى كان البربري يرى أن الأصهار إلى العربي والتقرب منه، إنما هو شرف كبير له، بل هو في نظره ضرب من العبادة، والتقرب إلى الله ، لأنه لأن هذا العربي في نظره، إنما هو رسول الله إليه، وأنه مجاهد في سبيل في تبليغ رسالة الحق المقدسة، وأنه مرابط في الثغور، بعيدا عن أهله وعن وطنه ، وأنه يفعل كل ذلك، في سبيل نشر مبادئه السمحة الخالدة ، وساعد على تسهيل التزاوج والاختلاط أن حملة رسالة الاسلام الأول من العرب كانوا بدورهم يؤمنون بأن دينهم لا يفرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض و أسود إلا بالتقوى ، من هناك شاع التزاوج بين العرب والبربر، وابتدأ منذ الفتح ، وظل يتسع نطاقه حتى يوم الناس هذا ، وقد مضى أربعة عشر قرنا على هذا التلقيح، لا يقف في طريقه واقف[29]

وفي الأخير نقول إننا عندما نتحدث على العموميات الثقافية وعن الهوية لأي شعب كان، فالذي يهمنا هو القاعدة العامة والغالبة وليس الاستثناء الموجود في كل أنحاء العالم وفي جميع المجتمعات والأمم، فالذي يجب أن يعمل من أجله أبناء الأمة الواحدة والموحدة هو الحيلولة دون تحول الاستثناء إلى قاعدة تحول الأقلية الهامشية (في غياب الديمقراطية الحقيقية) إلى أغلبية فاعلة أو نائبة للفاعل !!.

فهذه هي القضية المصيرية المطروحة على الأمم بأقطارها ودولها المتعددة حتى لا تتحول هذه الأقطار من الداخل بدورها إلى أمم أو أميمات في دولة شكلية مآلها التفكك والزوال، مثلما حصل لاتحاد والذي كان سوفياتيا او يوغسلافيا أو تشيكوسلوفاكيا. إذا أمكن المرء أن يكتسب عدة جنسيات وجوزات سفر في آن واحد، فلا يمكنه أن يكون في حقيقته ذا هويتين مختلفتين في نفس الوقت، وذلك لأن الهوية مثل الأم والشعب

مثل: الطفل (كما قال الدكتور أحمد بن النعمان)، ومثلما لا يعقل أن يكون للطفل والدتان اثنتان في الوقت ذاته فلا يمكن أن يكون للشعب هويتان مختلفتان، مع العلم أن الهوية الواحدة قد تتطور أو تتغير عموديا عبر الزمان، ولكنها لا تقبل التجزأ أفقيا عبر المكان في نفس الزمان، فإما أن يكون الشعب ذا هوية واحدة، أو لا يكون شعبا واحدا أو موحدا على الاطلاق !!

وإننا نراهن أنه مثلما افتعلوا أحداث منطقة القبائل وغرداية – أنهم سيفتعلون ويعمدون من أجل هذا– إلى افتعال أحداث أخرى داخل الوطن كلما أرادوا ذلك، وذلك من أجل خلط المزيد من الأوراق التي تخوّل لهم تشويه الخريطة اللغوية (الرسمية والوطنية) للجزائر والموروثة عن الاستعمار الفرنسي والتي يجب أن تعتبر في الحقيقة أهم وأخطر وأقدس من الحدود الترابية ذاتها التي تقرّها المواثيق الدولية ، ويحق الدفاع عنها والاستشهاد في سبيلها – لكنه وعلى العكس من ذلك وبعيدا عن هذا المفهوم السياسي والسيادي النوفمبري نجدهم يصطنعون – وقد اصطنعوا – وضعا لغويا جديدا في الدستور (رغم المادة الخاصة المتضمنة فيه) التي تنص صراحة على: " أن هناك ثلاث مواد لا تقبل التغيير أو المساس بها في المستقبل ، وهي المادة الأولى والثانية والثالثة، ومحتواها بنفس الترتيب:

1–النظام الجمهوري. 2 –الإسلام دين الدولة. 3–اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية.

فقد حدث عبر مراحل وخطوات ومخططات انتقالية، وتجرأ المسؤولون على إصدار فتوى أو قانون في هذا الخصوص كما هو حاصل حتى في هذه اللحظة (القانون الأخير لترسيم الأمازيغية 2018). فهذا الإجراء يمثل لكل المقاييس القنبلة أو الفتيلة المفجرة والمشظّية للوحدة الوطنية في الجزائر مثل: البند 7 مما يسمى "بأرضية القصر" التي كانت ضمن مفاوضات الحكومة والعروش 2005، أو كما حدث منذ دسترة الأمازيغية عام 2002، فلقد خلقت أوضاعا سياسية وقانونية جديدة.

وفي هذا الصدد وضمن اجابته عن أحد الأسئلة في مقابلة أجرتها إحدى الجرائد الجزائرية مع الخبير القانوني الجزائري (عضو المحافظة السامية الأمازيغية) وهو

الدكتور عز الدين زعلاني يجيب قائلا : " لقد سبق لي وأن صرّحت في العديد من المرات في الصحافة الوطنية في جريدتكم الموقرة في يوم 27 و28 أفريل 2004 أنه وبعد دسترة الأمازيغية كلغة وطنية يعتبر المطلب التعجيزي لترسيم الأمازيغية كشعوذه القانونية وهرولة سياسية وبلقنة لغوية" إلا أنه للأسف الشديد في هذه الأيام وصلنا إلى هذه الصفات الثلاث وتحقّق الشيء الخطير في هذه المسألة وكأنه اعتراف دستوري بلغتين رسميتين للدولة رغم أن الفكرة الجوهرية للدستور تقرّ بوجود شعب جزائري واحد وليس بوجود شعبين (عربي– أمازيغي)، أما بالخصوص الهرولة السياسية، فإن هذه المسألة وإن كانت من صلاحيات رئيس الجمهورية وحده، إلا أنها أدخلت البلاد في حلقة جهنمية ، وفي حالة القبول بالترسيم اللغة الأمازيغية في الوقت الراهن قبل توحيد الاستعمالات اللغوية للأمازيغية عبر التراب الوطني ، يعتبر ذلك تكريسا للهجات وتكسير للغة ذاتها، أي أن حصيلة ذلك ستؤدي إلى الاعتراف ب15لهجة رسمية ، وهذه هي البلقنة اللغوية المحظورة ، والتي ستؤدي إلى مرحلة تفكك وحرب إثنولغوية ... !! وإلى متهات اثنية وسياسية خطيرة !!

وتطوير اللغة الأمازيغية والقضاء على اللغة العربية في الجزائر، لا ينجح ولا يفلح فهو غير الممكن في ظل سيطرة اللغة الفرنسية على ألسنة وعقول، بل ووجدان هذه القلّة المقطوعة عن أية قاعدة شعبية حقيقة، والتي تتظاهر بالمناداة بتطوير اللغة الـــأمازيغية، وجعلها لغة كل شيء في الحياة، مثل اليهود، والألمان أو اليابانيين في بلدانهم و يا ليتهم فعلوا !! ثم نريد هنا أن نتساءل، إذا كانت الأمازيغية المعنية في الجزائر متعددة إلى درجة استحالة تفاهم مستعملي مختلف لهجاتها فيما بينهم في الوقت الحاضر، فالمطلوب بداهة، إذن، هو التوحيد قبل التطوير (كما قال الخبير القانوني سابقا).

وإذا كان الأمر كذلك، فماهي اللهجة التي ستوحد وتطور !؟ فهل هي القبائلية أم الشاوية أم الميزانية، أم التارقية ؟..علما بأن الناطقين بهذه اللهجات المحلية لا يتفاهمون فيما بينهم اليوم إلا بالعربية أو الفرنسية (كما قلنا) ، ومهما يكن من الأمر ، فإننا نقول بأن ذلك ممكن حدوثه نظريا على الأقل ولكن بشرط أن تتوفر الإرادة

الجماعية لأغلبية الجزائريين في كل ولايات الوطن....(الذين عربهم الإسلام على امتداد القرون)، لكي يلغوا هويتهم الثقافية والحضارية (العربية الإسلامية) الحالية، التي استشهد آباؤهم وأجداهم من أجلها عبر القرون، ويعودون إلى الوضع الذي كانوا عليه عشية الاحتلال الروماني....مثلما عاد الإسبان إلى صليبيتهم بعد ثمانية قرون بواسطة محاكم التفتيش الرهيبة !! .

فهكذا نرى أن الموضوع التطوير هذا، من ناحية العملية، مستحيل التحقيق، مع الاحتفاظ بوحدة الشعب والوطن، ووحدة الدولة، واحترام الدستور.

وهنا نسأل عن هذا التطوير وهذا التوحيد وهذا الترسيم، هل سيتم بالاختيار الديمقراطي الحر، مثلما تم الاستفتاء على تقرير المصير للشعب الجزائري الموحد 1962؟ أم سيتم بالإجبار (أي فرض اللغة بالقوة) ستكون النتيجة لصالح الفرنسية مثلما هو حاصل بالدبابة منذ 1962 حتى الآن! و في حالة الاختيار الديمقراطي الحر، ستكون النتيجة ساحقة لصالح العربية، كما عودنا على ذلك الشعب الجزائري دائما، عندما يترك حرا في تقرير مصيره، مثلما حصل في الاستفتاء على تقرير المصير في يوليو 1962 و ديسمبر 1992 !! .

ولا تصادر إرادته وتساق من القصر إلى القبر، كما حصل بعد هذين التاريخين ومازال يحصل حتى الآن!

والسؤال المطروح هنا هو: إذا اعتبروها اللهجات المختلفة في الجزائر لهجات كما ينبغي أن تسمى فعلا، نقول لهم: أين اللغة المرجعية التي يمكن أن ترجعوا إليها للتفاهم فيما بينكم؟ .

وفي الجواب السياسي والسيادي والعلمي والحضاري والديني والنوفمبري على هذا السؤال يكمن في مستقبل وحدة الجزائر كما أرادها شهداء نوفمبر أو زعماء أكتوبر وديسمبر، ومن شك في هذا الرهان فلينظر إلى واقع العراق بين شماله السنّي الكردي، ووسطة السنّي العربي ، وشرق إيران الشيعي العربي، ووسطه الشيعي الفارسي، ليدرك من يهمه الأمر في هذه الديار حتى لا يواصلوا اللعب بالنار التي لا تبقي ولا تذر إن انطلقت الشرارة، لأن الاختلاف الديني قد تعالجه اللائكية التي تفصل بين الدين

والدولة، كما هو الشأن في تركيا وفرنسا والعديد من أقطار العالم، اما التعدد اللغوي فلا للائكيه فيه ولا حل له، إلا الضمار أو لا الانفصال الحتمي على غرار قبرص أو تشيكوسلوفاكيا وما إلى ذلك مما هو مطروح على الخريطة السياسية في العالم .

خاتمة:

وفي الختام نقول من المفروض أن تقف كل من العربية والأمازيغية في جبهة واحدة ضد الفرنكفونية وأن تقف كل اللهجات واللغات المحلية عبر أقاليم العالم الإسلامي وشعوبه صفا واحدا وراء لغة القرآن وبجانبها، في مواجهة سياسية الهيمنة والتبعية التي تريد أن تبتلع هذا العالم الإسلامي بثقافاته ولغاته الخاصة وتقضي على خصائصه الحضارية تحت اسم العولمة والحداثة.

ولا يسعنا هنا إلا أن نذكّر بعض دعاة القومية (الجاهلية) من الذين يندفعون إلى تبني فكرة وحدة العنصر في بناء أو تكوين الأمة، وكذلك دعاة إسقاط الإسلام من حسابهم في المشرق أو الدعاة فصل العربية عن الإسلام في المغرب العربي.... ونحذرهم من الوقوع في شرك استعماري منصوب بذكاء يجعلهم كاللاعب الفاشل الذي يقذف الكرة بعد جهد في مرماه من حيث كان ينوي قذفها في مرمى الفريق المنافس أو الخصم اللدود. وكفى خلطا بين عروبة السلالة الخاصة بالحصان، و عروبة الرسالة المحمدية الخاصة بالإنسان–أيّ إنسان في كل زمان ومكان – من بخارى وسامرقند والصين وجاوى والفيلبين إلى صقلية ونواقشط وقرطبة وكاليدونيا والأرجنتين.

قائمة المراجع:

1–عبد الرحمان البزاز، **هذه قوميتنا**، دار القلم، القاهرة، مصر، بدون تاريخ.

2–مجلة الشهاب، قسنطينة، الجزائر، عدد فبراير، 1938م.

3–أحمد بن النعمان، **الردود الفعلية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر**، ط1، دار الامة، الجزائر، 2005م.

4–أحمد بن النعمان، **فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر**، منشورات دحلب، الجزائر، 1990م.

5-تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الشراكة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.
6-مجلة الموقف العربي، عدد يناير، 1979م.
7-حديث شريف رواه ابن عساكر.
8-د محمد بن عبد الكريم، حكم **الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية**، : دراسة وتحقيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة لافوميك، الجزائر، جوان 1981م.
9-عبد العلي الودغيري، **اللغة والدين والهوية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، 1420ه، 2000م.
10- أحمد بن نعمان، **سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1988م.
11- أحمد بن نعمان، **هل نحن أمة؟**، ط1، دار الأمة، الجزائر، 1417ه،1927م.
12- محمود غوزي ، مقال بعنوان: **تعريب الطب واقع وطموحات**، جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ 1989/06/28م.
13- د.رشدي فكار ، **محاضرة في علاقة اللغة العربية بإسلام**، ملتقى الفكر الإسلامي الثاني والعشرين، المنعقد بالجزائر، سنة 1988م.
14-فؤاد البنا ، **العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة**، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، 1427ه، 2006م.
15- جريدة الشرق الأوسط، 1988/09/04م.
16-بن يوسف بن خدة، **مفاوضات إيفيان**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1963م.
17- الفضيل الورثيلاني ، **الجزائر الثائرة**، بيروت ، لبنان،1963.

الهوامش والمراجع المعتمدة

(1) عبد الرحمان البزار، هذه قوميتنا، دار القلم، القاهرة، مصر، بدون تاريخ، ص96.
(2) مجلة الشهاب، قسنطينة، ا لجزائر، فبراير،1938

(3) أحمد بن نعمان، الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر، ط1، دار الامة ، الجزائر، 2005، ص28،29.

(4) أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 1990.

(5) مجلة الشهاب، نفس المرجع.

(6) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الجزائر (ش، و، ن، ت)، 1975م، ص52.

(7)مجلة الموقف العربي، عدد يناير،1979م.

(8) حديث شريف رواه ابن عساكر

(9) أحمد بن النعمان، **الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر**، مرجع سابق، ص35، 36.

(10) نفس المرجع ،ص37

(11) حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، دراسة وتحقيق د محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة لافوميك، الجزائر، جوان 1981، ص8.

(12) أحمد بن النعمان ، المرجع السابق نفسه، ص46.

(13) عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،1420ه،2000م، ص27 ،.

(14)نفس المرجع، ص29،30

(15) عبد العلي الودغيري، المرجع السابق نفسه، ص36.

(16) نفس المرجع، ص 48.

(17) أحمد بن نعمان، **سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص308.

(18) أحمد بن النعمان، **هل نحن أمة؟** ط1، دار الأمة، الجزائر،1417هـ، 1997، ص124.

(19) محمد غوزي، **مقال بعنوان: تعريب الطب واقع وطموحات**،، مجلة الشرق الأوسط، بتاريخ 1989/06/28

(20) أحمد بن النعمان، **هل نحن أمة** ، مرجع سابق ،ص149

(21)عن محاضرة له في ملتقى الفكر الإسلامي الثاني والعشرين المنعقد بالجزائر، 1988 .

(22) جريدة الشرق الأوسط ،1988/09/04

(23) أحمد بن النعمان، هل نحن أمة؟، المرجع السابق نفسه، ص141،240،239

(24) نفس المرجع، ص248.

(25) بن يوسف بن خدة، **مفاوضات إيفيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص19.

(26) أحمد بن النعمان، الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر، مرجع سابق، ص93.

(27) أحمد النعمان، **الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية في الجزائر**، مرجع سابق، ص94، 95.

(28) أحمد بن نعمان، **المرجع السابق نفسه**، ص 104، 105.

(29) الفضيل الورثيلاني، **الجزائر الثائرة**، بيروت، لبنان، 1963، ص49.